السُخرية في شعر أبي دُلامة

م. أميرة محمود عبد الله
جامعة بابل – كلية الآداب

مستخلص البحث

يمثل هذا البحث محاولة في الوقوف على فنٍّ شعري مهم من فنون الشعر العربي وهو فن السخرية ، وعلى الرغم من أهميته، فإنّه اكتسب أهمية أعمق عندما جعل منه شاعر عباسي مهم وهو أبو دلامة الغرض الرئيس الذي كثر في ديوانه حتى عرف بهِ فلا تذكر السخرية إلا وذكر أبو دلامة ، والعكس صحيح .

وجاء البحث على قسمين : الأول كشف عن دلالة السخرية لغة واصطلاحاً ، وأساليبها في اللغة الشعرية ، وعلاقتها بالهجاء من حيث التشابه والاختلاف ، فضلاً عن سمات الشخصية الساخرة ودوافعها ، أمّا الثاني فقد خصص لتحليل نماذج من الأشعار الساخرة في ديوان أبي دلامة ، والكشف عن خصائصها اللغوية والفنية ، وحاولنا أيضا استجلاء الدوافع النفسية التي دفعت أبا دلامة لانتهاج هذا السلوك في أشعاره ، وألحق بالبحث مسرد إحصائي يؤشر مواضع السخرية في ديوانه للدلالة على نسبة هذا الغرض لديه لنثبت صحة وصف أبي دلامة بالشاعر الساخر .

التمهيـد :

السخرية من اللغة إلى الاصطلاح : في بحثنا هذا نعالج ظاهرة أدبيةً كثرت عند مُبدعها أبي دُلامة حتى عرف بها ، وارتبطت به ارتباطاً ، فلا تذكر السخرية إلا وذكر أبو دُلامة[1] بوصفه أحد أعلامها ، المبرزين فيها ، إذ اتخذها منهجا ووسيلة يتوصل بها إلى مراده ، ويتوسل بها إليه ، ولطالما حقق مرامه . وحري بالباحث أن يبين دلالة " السخرية " في اللغة ، وعلاقتها بمفهومها الاصطلاحي الأدبي عند أهل الصنعة .فأمّا مفهومها لغة ، فقد قال ابن فارس : " السين والخاء والراء : أصلٌ مطَّردٌ مستقيم يَدلُّ على احتقار واستذلال ، يقال : رجلٌ سُخرةٌ ، يُسخَّرُ في العمل ، وسُخَرَةٌ أيضا : إذ كان يُسخَرُ منه " [2] ، ويقال : " سخرتُ منه ، وسخرتُ بهِ ، وضحكتُ منه وضحكت به ، وهزئت منهُ ، وهزئتُ به ، كُلُّ يقال " [3] ومما يُلحظ في الدلالة اللغوية ارتباط " السُّخرية " بالذِلّة ، وهو ارتباط تلازم ، فلفظ " السخرية " يقتضي أن يكون المسخور منه في موضع ذِلّةٍ ، أو يريد الساخر أن يجعله في مقام الذِلّة والانتقاص ، ولذلك وجدْنا الكافرين – كما حكى القرآن عنهم – يسعون إلى إذلال المؤمنين واحتقارهم . قال تعالى : (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)[4] وفي موضع آخر : (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[5] وفي سياق ذكر فعل المنافقين مع المصدقين من المؤمنين قال تعالى : (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[6] ، وإطلاق السخرية في الآية الكريمة على الله – سبحانه وتعالى – إنما جاء على سبيل المشاكلة، وهو فنٌ بلاغي معروف[7]. وممّا يلحظ في الدلالة اللغوية أيضا تلازم السخرية والضحك والاستهزاء ، ولا شك في أن بينها علائق دلالية ، فالضحك مُسبَّبٌ عن السخرية التي تهدف إلى الاستهزاء من المسخور منه .

ونخلص من بيان الدلالة اللغوية إلى أن " السخرية " في جوهرها مجموعة أفعال يقوم بها الساخر سواءٌ بيديه أم بوجهه أم بأقواله تجاه المسخور منه لتجعله في موضع الاحتقار والانتقاص ليضحك منه الآخرون .

وأما إذا كان الساخرُ مبدعاً وأديباً فإنه يعبر بطريقة تختلف عن طريقة الأناس الاعتياديين ، ولمّا كانت السخرية في أصلها مجموعة انفعالات نفسية تتكون في نفس الساخر وتمثل موقفه من المسخور منه ، ومجموعة أفعال قلبية وجدانية تتشكل في ضمير الإنسان فإنه يحتاج إلى أن ينفس عنها ، ويجسدها في مجموعة أفعال ، فقد

---

[1] () هو : زيدُ بن الجون ، أو زندُ بن الجون ، وأبو دُلامة كنيته ، كوفي النسب وأسديّ القبيلة لأنه كان مولى لبني أسد ، شاعر عباسي معروف ، كان أبوه عبداً لرجل من بني أسد ، يعرف بـ (قصائص) فأعتقه ، ولم تذكر المصادر من عائلته سوى أبيه وابنه وأمه وامرأته أم دُلامة وابنته ، وكان أسود حبشياً ، صاحب نادرة وبديهة ، إلى جانب دمامة في المنظر ، كانت وفاته سنة 161هـ . ينظر في ترجمته: الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، 780-782 و الأغاني : 10/281-322 والبداية والنهاية ، ابن كثير : 10/137-138 ، وتاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي 8/488-493 وسير أعلام النبلاء ، الذهبي : 7/374-375 .

[2] () مقاييس اللغة ، ابن فارس : 487 .

[3] () لسان العرب ، ابن منظور : 6/203 .

[4] () سورة هود ، الآية 38 .

[5] () سورة البقرة ، من الآية 212 .

[6] () سورة التوبة : الآية 79 .

[7] () ينظر : مفتاح العلوم ، السكاكي : 661 ، ومعجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب : 3/258-259 .

حاول النقاد ودارسو الأدب أن يعطوا لها تعريفاً اصطلاحياً ، فمنهم من رأى أنها : طريقة من طرائق التعبير ، يستعمل فيها الساخر ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم ، وهي صورة من صور الفكاهة ، تعرض السلوك المعوج ، أو الأخطاء التي إن فطن لها الفنان الساخر استطاع تحويلها إلى قطعة فنية أدبية فيها إبداع وتقويم في آن معاً[8] ، والمتأمل في هذا التعريف يجد انه يشير إلى أحد أساليب السخرية وهو تأكيد الذم بما يشبه المدح[9] ، وربما يشير إلى التعريض أيضا بوصفه واحدا من طرائق السخرية ، وهذا المنحى وجدناه في تعريف احد الدارسين الذي رأى فيها : طريقه في الكلام تعبر بواسطتها الشخصية الساخرة عن عكس ما تقصده في كلامها[10] .ولعل التعريف الانسب , لما نحن بصدده من دراسة هذه الظاهرة في شعر ابي دلامة , هو ان " السخرية " اعم من تلك التعريفات ، إذ إن لها أوجه عِدّة يمكن من خلالها النظر إليها ، فهي من جهة تمثل سمة نفسية لها علاقة بالنفس الإنسانية ، وتكوين الشخصية , ولذلك فقد احتوت كتب تاريخ الأدب على اعلامٍ غلب عليهم طابع السخرية سواءٌ أكان في الجانب الفكاهي الإضحاكي أم في الجانب القاتم السوداوي والحزين من الحياة ، حتى غدا أولئك نماذج للسخرية الأدبية ، ومن جهة اخرى فهي ذات جانب فلسفي ، اذ تعبر بوساطتها الشخصية الساخرة عن فلسفتها في الحياة وتجاه الأشياء ، بل تمثل – أي السخرية – وسيلة من وسائل التعبير عن مواقف معينة ، أو الوصول إلى مآرب يرومها الإنسان ، وقد تكون وسيلة من وسائل التعويض الذي قد يعاني منه الشخص الساخر في جوانب تكوينه النفسي أو الخِلْقي .وفوق هذا وذاك فإن للسخرية وجهاً أدبياً يمثل مناط الإبداع الذي يرى فيه المبدع ذاته ، ويُحسُّ بوجوده ، بل يثبت بواسطته أهميته في المجتمع ، ودوره الذي يتطلع إليه ويرنو ، ويعبر عن رأيه في قضايا مجتمعه .واعتماداً على ما تقدّم فإننا نستطيع أن نعطي تعريفاً لـ " السخرية " لعلّه يشمل كل ما تقدم من أوجه لهذا السلوك الشخصي المُجسّد في أساليب أدبية معينة ، بانها : كل قولٍ فني أدبي سواءٌ أكان شعراً أم نثراً ، له أهداف منها إصلاح ما يراه الأديب الساخر معوجاً ، أو التنفيس عن مكبوتات يضمرها الساخر في مكنونات نفسه ، أو التعويض عن نقص يعتمده صاحبه في نفسه ، وقد تكون غايته الإضحاك ، ولذلك فإن الكافرين عندما سخروا من المؤمنين في القرآن الكريم كانوا يرون أنهم على غير صواب أو هكذا حاولوا أن يعبروا عن موقفهم ، الذي تزينه لهم نفوسهم وشياطينهم .ومن المهم في هذا المقام ولا سيما أننا نتناول الدلالة الاصطلاحية للسخرية ، ان نذكر ان مصادرنا الأدبية القديمة قد ذخرت بالمصطلحات التي عبرّت عن مضمون السخرية ، وان هذه المصطلحات كان لها جانب نفسي وأدبي , وهي تعبر عن مضمون واحد هو " السخرية " .فمن هذه المصطلحات : الهُزءُ ، والتهكم ، والتندر ، والفكاهة ، والمزاح ، والكناية والتعريض وتأكيد الذَّمَّ بما يشبه المدح ، والهجاء في معرض المدح ، والهزل الذي يراد به الجدُّ ، وتجاهل العارف .إن الناظر في تلك المصطلحات يجد أنها قد تتداخل دلاليا من حيث كونها تعبر عن معنى السخرية ، وتؤدي إلى الإضحاك ، إلا أن بينها فوارق دلالية تمثل حدوداً فاصلة بينها ، فبعضها أساليب بلاغية وفنون قولية يستعين بها الساخرُ لبناء نصه الساخر ، وبعضها يمثل مقدمات تؤدي إلى السخرية . ولذلك وجدْنا بعض اللغويين قد فسَّر أحدها بالآخر ، فابن فارس قال : الهُزءُ : السخرية ، وهزئ به واستهزأ ، إذا سخر منه[11] ، غير ان هناك فرقاً دقيقاً بين : " الاستهزاء " و " السخرية " ، فالسخرية تقتضي وجود فعل ما من المسخور منه لتقع السخرية به ، بخلاف الاستهزاء فإنه يقع ابتداءً بسببٍ أو بغير سبب[12] .وأما التهكم فهو التعرض للناس بالشرِّ والعبثُ بهم والوقوع بهم والاستهزاء منهم والاستخفاف بقدرهم[13] ، هذا من حيث الدلالة اللغوية ، وأما الاصطلاحية فإنها تشكل معنىً ثانياً من المعاني البلاغية التي تؤول إليها قسم من فنون البلاغة ، فمن ذلك الاستفهام التهكمي[14] ، ومنه الاستعارة التهكمية ، وهي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في مغايرها من دلالة الذمِّ والتحقير[15] ، أو الألفاظ الدالة على الجمال في موضع القبح ، وهو أسلوب يهدف إلى إثارة المتلقي وتنبيهه إلى أمر يروم المنشئ إيصاله ، بيد أن بلاغيينا القدماء نظروا إلى التهكم بوصفه دالاً على معنى قائم بذاته ، فهو عندهم أسلوب قائمٌ على " الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار ، والوعد في مكان الوعيد ، والمدح في معرض الاستهزاء " [16] وهي وسائل الأديب الساخر في بنائه سخرياته .ومن المصطلحات التي تلتقي مع السخرية : الفكاهة ودلالتها اللغوية تدلُّ على الطيب

---

[8] () ينظر : السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، نعمان محمد أمين طه : 13 .
[9] () ينظر:معجم المصطلحات البلاغية:9/2-10
[10] () ينظر : معجم المصطلحات في اللغة والأدب ، كامل المهندس ومجدي وهبة : 198 .
[11] () ينظر : مقاييس اللغة : 1031 .
[12] () ينظر : الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري : 249 .
[13] () ينظر : لسان العرب : 15/111 .
[14] () ينظر : معجم المصطلحات البلاغية : 1/192 .
[15] () ينظر : المصدر نفسه : 1/158 .
[16] () ينظر : تحرير التحبير : 568 .

والاستطابة ، ومنها : الرجلُ الفكِهُ ، والمفاكهة المزاحة وما يستحلى من الكلام[17] ، ورجل فاكه ، وفكّهتُ القوم بملح الكلام ، والمصدر الفكاهة[18] .ودلالتها الاصطلاحية تختلف عن اللغوية ، إذ عرّفها المحدثون بتعريف تضمّن صور السخرية وهي عندهم : " السخرية واللذعُ والتهكم والهجاء ، والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة والتورية والهزل والتصوير الساخر " [19] ، ونستطيع القول من خلال التعريف السابق إن الفكاهة معنى أو مضمونٌ يعبر عنه بأساليب متنوعة ، قد تكون محمودة محبوبة كما في الرجل الفكه الظريف ، أو تكون مذمومة إذا استعملت في الانتقاص من الآخرين .والتنُّدر : مصدر الفعل " تندَّرَ " ، ويدُلُّ على معنى المفاعلة في إتيان النادرة ، والأصل في " ندر " يدُلُّ على معنى السقوط " من خوف شيءٍ أو من بين شيءٍ ، أو سقط من فوق شيءٍ أو من أشياء فظهرَ ، ونوادرُ الكلام تندُرُ ، وهي ما شذَّ وخرج من الجمهور وذلك لظهورها " [20] وكأنها سميت نوادر لفرادتها وعِزّتها من أنواع الكلام ، إذ تتسمُ بخصائص لا تتوفر في غيرها من الكلام ، وتكون في المدح والذم والجميل والقبيح ، ولذلك عُرِّفت بكونها " إتيان المتكلم بنادرة حُلوة ، أو مجنة مستطرفة ، وهو يقع في الجدِّ والهَزْل " [21] .

والمزحُ والمُزاحُ من وسائل السخرية وطرائقها ، ودلالته اللغوية تعني المداعبة[22] ، وثمّة فرق بين المزاح والسخرية وإن كانا يلتقيان من جهة ، فالمزاح " لا يقتضي تحقير من يُمازح ، ولا اعتقاد ذلك ، ألا ترى أن التابع يمازح المتبوع من الرؤساء أو الملوك ، ولا يقتضي ذلك تحقيرهم ، ولا اعتقاد تحقيرهم ولكن يقتضي الاستئناس بهم " [23] بخلاف السخرية التي تعني في جانب من دلالتها تحقير المسخور منه ، ومن أنواع المزاح : المزاح الساخر ، وهو أخفُّ درجات الهجاء التي تقع بين الدُّعابة والسخرية[24] ، ولعلنا بعد ذلك كُلِّه نستطيع القول إن من السخرية ما تقال على سبيل المداعبة والترويح عن النفوس وليس الانتقاص من الآخرين وتحقيرهم ، وهذا المفهوم ينطبق على المزاح ، وهو ما وجدناه عند شاعرنا أبي دُلامة الساخر من كُلِّ شيء .

ومن الأساليب البلاغية التي يستعين الأديب الساخر بها في قصائده الساخرة : الكناية وهي وإن كانت تختلف عن دلالة السخرية الاصطلاحية ، لكنها يمكن أن توظف في مجالها . والمقصود بالكناية : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفهُ في الوجود ، فيومئ إليه ويجعلهُ دليلاً عليه " [25] وتمثل وسيلة ناجعة من وسائل الساخر ، إذ يعتمدها في التعبير عن المستقبح من الصفات والأخلاق ، وهذا الأسلوب أوقع في نفس المسخور منه ، وأشدُّ أثراً .

والتعريض وسيلة أخرى من وسائل السخرية تعتمد في بناء الأساليب الساخرة ، وهو عند البلاغيين " الدلالة على المعنى من طريق المفهوم ، وسمي تعريضاً ، لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ ، أي من جانبه ، ويُسمّى التلويح ، لأنّ المتكلم يُلوح منه للسامع ما يريدُه " [26] ولسنا في صدد الحديث عن الكناية والتعريض وتفصيل القول فيهما وفي أنواعهما ، بل نأخذ منهما ما يتعلق ببحثنا وموضوعنا ، إذ يمثلان أحد أساليب السخرية في الأدب العربي ، بل من أبرز أساليبها .ومن طرائق السخرية في الأدب تأكيد الذم بما يُشبه المدح ، وهو فن بلاغي وسيلته إثارة المتلقي عن طريق مفاجأته بذكر أمر لم يكن يتوقعه ، وقد عرّفه البلاغيون بأنه : " الإتيان بصفة مدح منفية بأداة نفي ، أو مُثْبتةٍ متلوةٍ بصفة ذمٍّ مستثناة ، والجملة الثانية توهم السامع وتدفعه إلى توقع صفة مَدحٍ ، إلا أنه سرعان ما يُفاجأ بذكر صفة ذم أخرى " [27] .إن هذا الأسلوب يمثل وجها من وجوه السخرية المبنية على التهكم والإمعان في الاستهزاء .وفي سياق حديثنا عن أساليب البلاغة المستعملة في بناء القصائد الساخرة لا يفوتنا ذكر ما أطلق عليه البلاغيون " تجاهل العارف " وهو عندهم " سوق المعلوم مساق غيره لنكتةٍ " [28] عن طريق أسلوب الاستفهام ، إذ إن الساخر يعمد إلى ذكر ما يسخر منه فيضعه في سياق سؤال من يجهله وهو عنده معلوم ، فيتظاهر بمظهر الجاهل به " ليخرج الكلام مخرج المدح أو الذمِّ ، أو ليَدلّ على التدله في الحُبِّ ، أو القصد التعجب ، أو التقرير أو التوبيخ " وكُلُّ هذه السياقات يمكن الإفادة منها في الأدب

17() ينظر : مقاييس اللغة : 796 .
18() ينظر : المخصص ، ابن سيدة : 13/19 .
19() الفكاهة في مصر ، د. شوقي ضيف : 13 ، وينظر : الفكاهة عند العرب ، أنيس فريحة : 14 .
20() ينظر : لسان العرب : 14/90 .
21() ينظر : تحرير التحبير : 571 .
22() ينظر : مقاييس اللغة : 947 .
23() الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري : 248 .
24() ينظر : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : 352 .
25() دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : 105 .
26() المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير : 3/57 .
27() ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : 2/374 .
28() المصدر نفسه : 2/378 .

الساخر .ومن وسائل السخرية في الأدب العربي الهجاء في معرض المدح ، فالساخر في هذا النوع من السخرية " يأتي بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنها القدح ، فيوهم أنه يمدح وهو يهجو " [29] وهو نوع من أنواع الهجاء الساخر ، ولعله أشدُّ وأعمق تأثيراً في نفس المهجو المسخور منه .ومن أساليب السخرية الأخرى : الهزل الذي يراد به الجِدُّ ، والمقصود به إخراج الجاد من الأمور مخرج الهزل ، وقد ذكره علماء البلاغة في باب المدح والهجاء ، وهو عندهم " أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمّهِ فيخرج ذلك مخرج المجون " [30] ، والمتأمل في هذا الأسلوب من السخرية يجده من الأساليب الشديدة الوقع في النفوس ، ولعلّ هذا السبب وراء اعتمادها في شعر النقائض والهجاء بصورة عامّة .وبعدُ فهذه أساليب السخرية في أدبنا العربي القديم , كما اشَّرها القدماء من البلاغيين والنُّقاد ، والمتأمل فيها يجدها تلتقي مع السخرية من جهة وتختلف من أخرى ، إلا إنه ما يمكن أن يقال فيها : إنها تمثل أساليب متنوعة يلجأ إليها الأديب الساخر ، فيغني لغته عن طريق تنويع أساليبه ، ولذلك يمثل تنوع هذه الأساليب في الحقيقة , دلالة على غناء اللغة العربية في وسائل تعبيرها .ومما يلحظ فيها أيضا أنها تكتنز بالدلالات النفسية التي يمكن أن يستعين بها مَنْ يتصدى لدراسة الأدب من الوجهة النفسية ، فهي إذن تمثل بُؤراً دلالية تكشف عن صفات النفس الساخرة ، ودوافع السخرية التي أدت به إلى أن يسلك هذا النوع من أنواع النظم .

ولذلك يتوجب على الباحث بعد بيان ألفاظ السخرية في أدبنا العربي أن يكشف عن طبيعة الشخصية الساخرة ودوافعها ، سيما أننا نعالج موضوعاً لم يأتِ عرضا عند صاحبهِ ، بل غلب على شعره حتى عرف بهِ ، واتخذه منهجاً أدبياً كثر في نظمه ، وهذا مما لا شك فيه يكشفُ عن أسباب يحاول البحث الكشف عنها .

السخرية والهجاء :

عرفنا دلالة السخرية في الأدب ، ورأينا أنها تمثل موقف الشاعر ، ووسيلته في التعبير والاصلاح عمّا يراه غير منسجم مع ما يعتقده ، فضلاً عن كونها أداة للترويح عن النفس ، والتنفيس عن مكبوتاتها سواء في الجدِّ أو الهزل .إلا أن ما ينبغي التعريج عليه هو علاقتها بفن الهجاء ، والأوجه الدلالية والوظيفية التي يمكن من خلالها أن تلتقي معه أو تفترق عنه ، ذلك أن السخرية كثيراً ما تتداخل مع الهجاء من حيث المنهج والأساليب والأهداف .فالهجاء في مصطلح الأدباء : تعداد للمعايب ، وكشف لشناعة الرذائل سواءٌ ، لدى الفرد أو المجتمع ، أو من منظور الشاعر الهاجي ، والهدف منه إصلاح ذلك كُله وتقويمه ، وقد يكون وسيلة للانتقام من المهجو ، وتحطيمه في المجتمع لأنه لم يُعجب من هجاه ، وهذا يعبر عن الجانب السلبي للهجاء الذي يوحي بطبع أناني ونفسٍ مريضة ، هدفها الانتقام وتحصيل غاياتها وإن كانت غير شرعية[31] .

ولذلك فالمتتبع لمسيرة هذا الفن وتطوره في الأدب العربي يجد أنه وظِّف في جانبين : الأول : إيجابي إصلاحي وتقويمي ، والثاني : نفعي أناني هدام غايته تحقيق مصالح النفس وملذاتها وتحصيلها بأي طريق كان ، وهذا يعني انه قائم على أساس الجِدِّ في القول والفعل باعتبار وجهة نظر صاحبه ، وقَلما وجد هذا الفن موظفاً في الجانب الهزلي الإضحاكي الترويحي .والسخرية تلتقي مع الهجاء من ناحية الوظيفة ، فقد توظف في الجانب الإصلاحي والتقويمي للفرد والمجتمع عن طريق تجريد النقائص والعيوب والرذائل ، وإبراز وجهها القبيح ، وهذه الغاية تطهيرية ، وقد تكون السخرية وسيلة من وسائل الهجاء ، وبكل أساليبها التي ذكرناها سابقاً .

ولذلك فإن النقاد ميزوا نوعاً من الهجاء أطلقوا عليه الهجاء الساخر المتندّر إذ " يتماجن الشاعر ويعبث ويلهو بمصائر الآخرين وأقدارهم ، هازئاً من سخفهم وعاهاتهم ونقائصهم فالشاعر لا يصدر هنا عن نقمةٍ أو غيظٍ ، بل عن خفةٍ ولهوٍ ، يُحدِّق بالآخرين فيبصرهم وقد وقعوا من نفوسهم ومن سواهم في أزمات ، تقدحهم حالةٌ يرتهنون إليها ، فيتظاهرون بما يعاكسها أو يسترها أو يعفي عليها ، وهذا النوع من الهجاء ينطوي على معنى الاحتراف وهو يغلب بل يعظم في البيئات الحضارية المتقدمة حيث يقدر للشاعر أن يتفرغ لدراسة موضوعه واستطلاع مكامن العاهة والسخرية والتندر " [32] ولعلّ هذا النوع من السخرية الهاجية لم يشع عند أبي دُلامة ، بل كانت سخرياته على سبيل الظرف والفكاهة والترويح عن النفس .إلا أن ما يميز السخرية من الهجاء كونها تستعمل في الجانب الهزلي الذي يهدف إلى الإضحاك والترويح عن النفوس ، وهو ما يعرف بأدب الظرفاء أو نوادرهم ، وهذا ما وُجد مميزاً عند عدد من أدباء العصر العباسي ، لا سيما أبا دُلامة .ومما تنبغي الإشارة إليه أن الشاعر الساخر يفترق عن الشاعر الهاجي من حيث سماته الشخصية ودوافعه أيضاوسنبينه في المبحث الآتي .

الشخصية الساخرة :

---

[29] () تحرير التحبير : 550 .
[30] () جوهر الكنز ، ابن الأثير الحلبي : 211 .
[31] () ينظر : اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي : 13 .
[32] () ينظر : فن الهجاء وتطوره عند العرب ، إيليا حاوي : 10 .

إن البحث في هذا الجانب أقرب إلى موضوعات علم النفس منه إلى الأدب ، ولا غرابة في ذلك إذ أدركنا أن الأدب في أصله مجموعة انفعالات النفس الإنسانية تضطربُ داخل نفسٍ شاعرة مرهفة ليست كباقي النفوس ، تلكم هي نفس الأديب ووجدانه ، زد على ذلك إنَّ الأديب إنسان تخضع نفسه لكُلِّ الظروف التي تخضع لها نفوس الآخرين . ولكي يستكمل البحث هيأته لابُد من تجلية خصائص النفس الساخرة وربطها بدوافع السخرية لديها .

إنَّ الناظر في أصناف الشخصية الإنسانية يجدها متنوعة في مشاعرها وتصرفاتها ويستطيع أن يميز بين أكثر من نوع من أنواع الشخصية ، فمن النّاس من يرى نفسه فوق أفراد مجتمعه ، ومن ثمّ يعتقد فيهم الدونية ومنهم من يرى أنه دون الآخرين لوجود مركب النقص الذي يقضُّ مضاجعه ، ومن النّاس من يشعر بالحرمان لفقدانه نِعماً يراها لدى آخرين ، ومنهم من يعاني من عجز فعلاً وواقعاً .... فتلك العقد النفسية تمثل انفعالات وجدانية ، وفي ضوئها يمكن أن تتنوع الشخصية ، وفضلاً عن ذلك فإنها تمثل مؤثرات تدعو الأديب التنفيس عنها ، من خلال أعماله الأدبية الساخرة .فعقدة الشعور بالتفوق تدفع صاحبها إلى ازدراء الآخرين والسخرية منهم على اعتبار أنهم دونه في المقام ، وهذا الشعور عادة مصحوب بالحقد والكراهية على من يسخر منهم الأديب . وأمّا الشعور بالنقص الذاتي للإنسان وهو ما يدعى بآليات التعويض أو التعويض الأعلى فيمثّل دافعاً قوياً آخر وقوة وهاجة تحرك مشاعر الفنان ونشاطه الإبداعي ليتدارك ما يعتوره من نقص[33] ، ومن الجدير ذكره في هذه النقطة أن آليات التعويض تتم عن طريق محاولات الأديب الساخر النبوغ فيما يعجز عنه الآخرون من الفنون الشعرية , إما للفت انتباههم أو الترويح عن نفسه ونفوس أبناء مجتمعه فيأخذ مكانه الذي يستحقه ، إذ إنَّ الفاقد للشيء وبخاصة إذا كان المفقود عضوا من الجسد والقوام الإنساني يلجأ إلى مبدأ التعويض ، ليصل الساخر إلى شعور التفوق وإن كان وهمياً[34] ، وهذا ينطبق على شاعرنا أبي دُلامة الذي كان يعاني من دمامة المنظر .أمّا الشعور بالألم والحرمان والمقصود بالحرمان هنا ما يتعلق بخارج الشخصية الساخرة كالفقر والتهميش ، فيمثلان طابعاً شخصياً ودافعاً إبداعياً في الوقت نفسه ، ولهذا فإن السخرية في مثل هذه المواقف وسيلة مثلى لطرد العواطف والمشاعر المؤلمة[35] .وثمّة شخصية أخرى يمكن أن تضاف إلى أنواع الشخصيات ، وهي الشخصية الساخرة أصلا وطبعاً وإن كانت غير مصابة بما ذكر سابقاً ، إذ إن من الأدباء من غلب على طبعهم ومن ثمّ أدبهم السخرية المصحوبة بالظرف والفكاهة والمدعومة بذكاء وبديهة وقّادة ، وهذا العامل مهم في ولادة الأدب الساخر ، ونستطيع القول إنّ له تأثيراً مستقلاً ومنفرداً في ظهور كثير من الأدب الساخر في أدبنا العربي .

ولكن في أي الشخصيات الساخرة يمكن أن نضع أبا دُلامة. وما دوافع انتهاجه السلوك الساخر في أشعاره ؟

يمكن القول إن أبا دُلامة قد عانى من وضعه الاجتماعي كما مرَّ في ترجمته ، لكونه عبداً ذا بشرة سوداء ونسب غير معروف جعله في مكانة اجتماعية لا يحسد عليها ، وزد على ذلك دمامة منظره وفقره ، وكل ذلك دفعه إلى أن يبحث عما يتميز به ، ويحببه إلى أفراد المجتمع ، بل عِلية المجتمع من الخلفاء والوزراء ، ووافق ذلك بديهة حاضرة ، ولغة سهلة ممتنعة ودعابة جعلته خفيف الظل[36] ، فكان له ذلك ، ولم نجد له فيما وصل إلينا من أشعاره نقمة على المجتمع وتهجماً عليه بل سلك في سخرياته مسلك الدعابة والظرف ، وإضحاك الآخرين وإن كان ما يضحك منه نفسه أحياناً .

السخرية في شعر أبي دُلامة :

إنّ الناظر في ديوان أبي دلامة يجد أن فن السخرية قد كثر عنده ، وفي كل المناسبات ومن كُلِّ شيء حوله ، إذ ابتدأ بنفسه ، فسخر منها ، ومن أمِّه وزوجته وبنيه ، ومن دابتهِ ومن أشخاص آخرين .... ولا غرابة أن يُعَدّ أحد أبرز شعراء السخرية ، ومن أعلام الظرافة والإضحاك في زمانه .

ومما يلحظ على تلك الأشعار الساخرة ابتعادها عن الإسفاف في القول ، بل نستطيعُ أن نعدها من أشعار الفكاهة الملتزمة الهادفة إلى الترويح عن النفوس وبث البهجة والسعادة في نفوس المتلقين .

وذلك ما جعل لغتها سهلة مباشرة , ويمكن وصفها بالسهلة الممتنعة التي تقترب الى الأسلوب النثري ، ونستطيع القول إن أبا دلامة قد قصد إلى ذلك قصداً إذ إنَّ جمهور المتلقين عنده مثّل كل طبقات المجتمع ابتداء من العامة ، وانتهاءً بعلية القوم .

---

[33] () ينظر : الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، د. عبد الفتاح فيدوح : 68 .
[34] () ينظر : النفس وانفعالاتها وعلاجها ، علي كمال : 1/129 .
[35] () ينظر : السخرية في الأدب العربي : 6 .
[36] () ينظر : العصر العباسي الأول ، د.شوقي ضيف : 295-296 .

وكما قلنا فإن أبا دلامة سَخِرَ من كُلِّ شيء ، حتى بنفسِهِ ، من ذلك قوله[37] :

بَلْتِ عَليّ – لا حُيِّيت – ثُوبي فبال عليك شيطان رجيمُ

فما ولدتكِ مَريمُ أم عيسى ولا ربّاك لقمانُ الحِكيمُ

ولكن قد وُلِدتِ لأَمِّ سوءٍ يقوم بأمرها بعْلٌ لئيمُ

ومما يلحظ على أبيات هذه القصيدة سمة السهولة في اللغة والتقريرية المباشرة الخالية من فنون التصوير البياني ، ولعل وراء ذلك , الارتجال ، إذ يروى أنه ارتجل الابيات عند حمل صبية له على كتفهِ فبالت عليه[38] فقالها على الفور ، وهذا يتماشى وينسجم وخفة روحه ، ودعابتهِ التي اشتهر بها . ومن الجدير بالذكر أن التقريرية المباشرة في لغة العمل الشعري وإقلالها من فنون البيان لا يعد سمة تقدح في قيمة ذلك المنتج[39] ، بل إن الموقف أو المناسبة قد يتطلبان سلوك مثل هذه السمة الأسلوبية ، وأبو دلامة في المقطوعة السابقة لم يسخر من نفسه فحسب ، بل من صبيته وأمها ، ونجده استعان بشخصيتين قرآ نيتين هما : الصِّديقة مريم أم عيسى ولقمان الحكيم عليهما السلام بوصفهما نموذجين يقتدى بهما في التربية والأخلاق الكريمة والتقوى ، فضلاً عن مكانتهما الرفيعة عند الله – سبحانه- وعند المؤمنين ، ولذلك قابلهما- على سبيل السخرية – بوصف زوجته ونفسه بالسوء واللؤم ، وهذا نوع من المقابلة ، وتمثل وسيلة من وسائل إبراز المعنى وتعميقه ، عن طريق الإتيان بمعنى يقابله ويغايره[40] .وفي موضع آخر من ديوانه نجدُ أبا دلامة يصور نفسه في لوحة ساخرة ، إذ جرّد نفسه من أي صفة تجعله في مراتب الإنسان ، فقال[41] :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة فليس من الكرامِ ولا كرامهْ

إذا لبِسَ العِمامة كان قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامهْ

جَمْعت دمامةً وجمعت لؤماً كذاك اللؤمُ تتبعُهُ الدَّمامهْ

فإن تكُ قدْ أصبْتَ نعيمَ دنيا فلا تفرح فقد دنتِ القيامهْ

يروى أنّه انشدَ هذه الأبيات أمام المهدي وعنده نفرٌ من عِلية القوم[42] ، ولذا فإنَّ غايته كانت إضحاكهم ، وإشاعة جوٍ من البهجة في مجلسهم ، ولذلك فإنّه تفنّنَ في رسم صورة ساخرة لنفسِهِ ، مشبهاً نفسَهُ تارة بالقرد في حالة لبسه العمامة ، وبالخنزير تارة أخرى إذا نزع عن رأسه عمامته ، وهو نوع من التصوير التشبيهي البليغ ، اذ إنه جاء محذوف الأداة ، وهذا أدعى في توحد طرفي الصورة التشبيهية ، بل إن المشبه يرتقي الى مصاف المشبه به[43] ولم يكتف بسلب صورة الإنسان عن نفسه ، بل سلب فضائل خُلقية ، فوصف نفسه باللؤم وهي صفة تكررت عنده في المقطوعة السابقة ، والحقَّ أن الأبيات الساخرة هي أقرب إلى الشعر الفكاهي من حيث شخصية المسخور منه ، ومن حيث غرضِ السخرية .ولعلَّ القارئ يستغرب أشدّ الاستغراب عندما يقرأ لشاعر يجعل من نفسِهِ أضحوكة للآخرين ، ومحطَّ سخريتهم ، ولا سيما أنه ينظمها شعراً !وربما يكون السبب أنّ أبا دلامة لم يرضَ عن نفسِهِ من حيث نسبُهُ ووضعه الاجتماعي كما رأينا,إذ إنه مُنقطع النسب ولم يعرف من نسبه إلا أباه الذي كان عبداً أسود عند أحد الأسديين ، فضلاً عن دمامة منظره ، وكأن قوله :

جمعت دمامة وجمعْت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدمامهْ

فإن تكُ قدْ أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامهْ

---

[37] () ديوانه : 112 .
[38] () ينظر : الأغاني : 10/287 .
[39] () ينظر :نظرية الأدب ، أوستن وارين ورينيه ويلك :28-29 .
[40] () ينظر : لسانيات النص ، محمد خطابي : 130-131 .
[41] () ديوانه : 109-110 .
[42] () ينظر : الأغاني : 10/306 .
[43] () ينظر : البلاغة العربية قراءة أخرى ، د. محمد عبد المطلب : 150 .

جاء بمنزلة اعتراف نفث به لسانهُ لما كان يعانيه فعلاً من ألم نفسي يقضُّ مضجَعَهُ . ونستطيع القول بعد ذلك إنَّ تلك السخرية من النفسِ نوعٌ من التعويض الذاتي مارسه الشاعر ، ولا سيما أنه كان يفعل ذلك في مجالس الخلافة والوزراء ، ليجعل لنفسِهِ قيمة بين الملأ آنذاك .وكان يتخذ من السخرية في مواقف معينة وسيلة للوصول إلى أهدافٍ يسعى إلى تحقيقها ، من ذلك إحجامه عن المبارزة في إحدى المعارك ، إذ قال[44] :

إني أعوذُ بِروْحٍ أن يُقدِّمني ... إلى البرازِ فتخزى بي بنو أسدِ

إنّ البرازَ إلى الأقرانِ أعلمهُ ... مّما يُفرِّق بين الروحِ والجسدِ

قدْ خالفتك المنايا إذْ صمُدت لها ... وأصبحت لجميع الخلق بالرَّصدِ

إنَّ المُهَلّبَ حُبَّ الموت أورثكم ... وما ورثتُ اختيار الموتِ عن احدِ

لو ان لي مُهْجةً أخرى لَجُدْتُ بها ... لكنّها خُلِقتْ فرداً فلم أجُدِ

إنّ معاني تلك الأبيات توحي بعمق الجبنِ الذي شعر به أبو دلامة في تلك اللحظة التي تنكشف فيها معادن الرجال الحقيقية ، ولكنّه حاول أنِ يُجمل ذلك الوصف الذي يشين أصحابه بأبيات ساخرة مغلفة بروح الدعابة والفكاهة ، وإن كانت نفسُهُ هي موضوع السخرية ، ولو تأملنا الأبيات السابقة لوجدْنا السهولة الواضحة في لغتها ، وخلوها من فنون البيان والتصوير الشعري ، وكأننا نقرأ أسلوبا نثرياً لولا وجود الوزن والقافية ، وإن كانا وحدَهما لا يسمان العمل بالشعرية ، واستطاع الشاعر أن يوفق بين مطلع المقطوعة وخاتمتها اللذين كانا الموضع الموحي بدلالة السخرية ، وكان له ما أراد فأعفي من المبارزة .ذكرنا في الأسطر السابقة أن أبا دلامة اتخذ السخرية وسيلة يتوصل بها إلى ما يريد ، من ذلك خطابه أبا جعفر المنصور مستجدياً عطاءه[45] .

هاتيك والدتي عجوزٌ هِمّةٌ ... مثل البليةِ درعها في المشجبِ

مهزولةُ اللحيينِ من يرها يقُلْ ... أبْصرتُ غولاً أو خيالَ القُطربِ

ما إنْ تركْتُ لها وَلا لابنٍ لها ... مالاً يُؤمَّلُ غيرَ بكْرٍ أجربِ

ومما يبدو لقارئ تلك الأبيات والقصيدة كُلّها أن أبا دلامة كان يختار لغته بحسب المواقف والمناسبات فيرتجل مقطوعات تتسم بالسهولة والوضوح حيناً ، ويتأنق ويتأنى في أخرى فيختار لها لغة تتسم بشيءٍ من العمق والإيحاء عن طريق توظيف فنون التصوير أو أساليب القول ، كما في هذه الأبيات ، إذ اختلفت لغتها عمّا سبق من أبيات من حيث نوع الألفاظ التي اتسم بعضها بالغرابة والعمق والإيحاء " البلية ، درعها ، المشجبِ ، القطرب رُقِشتْ ، لُزَّب " ونلحظه عند وصولهِ إلى غرضه وهو استجلاب عطاء الخليفة يرتقي بلغته فيجعلها أكثر إيحاءً وأعمق دلالة ، لتوظيفِهِ فنون البيان ، إذ قال[46] :

لا يسألونك غير طَلِّ سحابةٍ ... تغشاهُمُ من سَيْلكَ المتحلِّبِ

يا باذلَ الخيراتِ يا بن بَذُولِها ... وابنَ الكرامِ وكُلِّ قوم مُنجِبِ

أنتم بنو العباسِ يُعْلمُ أنكم ... قِدْماً فوارسُ كُلِّ يومٍ أشهبِ

أحلاسُ خيلِ اللهِ وهي مُغيرَةٌ ... يَخرُجْنَ من خَلَلِ الغبارِ الأكهَبِ

---

[44] () ديوانه : 54-56 .
[45] () ديوانه : 35-37 .
[46] () المصدر نفسه : 37 .

إنّ غرض هذه الأبيات في المديح ، وهو وإن كان لا يدخل في موضوع البحث ، إلا أنّه يَدُلُّ على قدرة أبي دلامة في تنويع أساليب اللغة الشعرية ما بين السهل الواضح المباشر والموحي المركب من ألفاظ غريبة أو تتسم بشيء من الغرابة ، والقائم على توظيف أساليب التصوير البياني ، كما في قوله " طلٌّ سحابة " وهي نوع من الاستعارة المكنية ، و " سيلك المتحلب " وهي استعارة أخرى ، لتصوير عطاء الممدوح .

وممّا يلفت النظر في هذه القصيدة مطلعها ، إذ إنّ القصيدة جاءت في المديح واستدرار عطاء الخليفة ، إلاّ أن الشاعر جعل مطلعها في غرض السخرية ، ويُعدُّ هذا نوعاً من التجديد في الشعر العربي ، إذ بدلاً من استهلال القصيدة بالوقوف على الطلل ووصف الناقة كما عُهِدَ عند الشعراء قبل الإسلام ، جعل أبو دلامة مقدمة القصيدة في السخرية ، وهذا مما يسجل لأبي دلامة .ومما وظّفه الشاعر في مطلعه الساخر من أمّه فن التصوير التشبيهي. اذ رسم صورة أمّه التي أقعدها كِبرُ سِنِّها في أبشع تصوير ، فهي في نظره مثل الناقة التي تنتظر حتفها وهي مقيدة عند قبر صاحبها كما كان يفعل الجاهليون ، ولا شك في أن تلك الصورة توحي بدلالة الموت وانتظار نهاية الحياة ، ولهذا عاد في البيت الثاني ليعمق ذلك القبح فقال :

مهزولة اللحيينِ مَنْ يرها يقُلْ أبصرْتُ غولاً أو خيال القطربِ

والغول والقطرب اتخذهما العربُ رمزين للمخيفِ والقبيحِ وهم لم يروهما أصلاً ، وهذا يَدُلُّ على مدى احتقار أبي دلامة لنفسِهِ ووضعه الذي كان يعيشه ، وقد يفهم القارئ سخرية الشاعر من نفسِهِ ، ولكن ان يسخر من امه على هذا النحو, فإنّه يكشف عن عقدة نفسية كان يعاني منها الشاعر ولكنه غلفّها بغلاف السخرية والفكاهة .وفي سياق آخر اتبع أبو دلامة الأسلوب نفسه في استدرار عطاء الخليفة ، ولكنه في هذه المرة سلط سهام سخريته على زوجته وبنيها , التي وصفها بأبشع وصفٍ ، اذ قال في قصيدة يخاطب فيا المنصور أيضا[47] :

عجِبتُ من صبيتي يوماً وأُمِّهمُ أَمِّ الدُّلامة لمّا هاجَها الجَزَعُ

لا بارك الله فيها من مُنبّهةٍ هَبّتْ تلومُ عِيالي بَعدما هَجَعوا

ونَحنُ مُشْتَبِهو الألوانِ أوجُهُنا سُودٌ قِباحٌ وفي أسمائِنا شَنَعُ

أذابَكَ الجوعُ مُذ صارت عِيالتنا على الخليفةِ منهُ الرِيُّ والشَّبَعُ

لا والذي يا أمير المؤمنينَ قضى لك الخلافَةَ في أسبابِها الرِّفَعُ

ما زِلتُ أخْلِصُها كَسْبي فتأكُلُهُ دوني ودونَ عِيالي ثُمّ تضطجِعُ

شوهاءُ مَشنأةٌ في بَطنها ثَجَلٌ وفي المفاصلِ مِن أوصالها فَدَعُ

ذكّرْتُها بِكتابِ اللهِ حُرمَتَنا ولم تكن بكتابِ الله تَنتَفِعُ

فاخْرَنْطَمتْ ثمّ قالت وهي مُغْضَبةٌ أأنتَ تتلو كتابَ الله يا لُكَعُ

أَخرُجْ لتبغِ لنا مالاً ومزرعةً كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ

واخدَعْ خَليفَتَنا عنها بمسألةٍ إنَّ الخليفة للسُّؤال يَنْخَدِعُ

وإذا تأملنا في مضمون هذه القصيدة وجدْنا فيها نوعاً من السخرية ، لعلنا نستطيعُ أن نطلق عليها السخرية الاجتماعية ، على اعتبار العلاقة الزوجية شأنٌ اجتماعي ، وقدْ بدا أبو دلامة فيها جاداً شاكيا من سوء خُلقِ زوجته ، ورسم لجسدها أبشع صورة مضحكة ، بل إنّه أبدى سخطه أيضا على وضعه من حيث لون البشرة ، وقبح الوجوه ، وشناعة الأسماء وهنا يمتزج أسلوب الجدِّ بالهَزْل ، وتظهر غرابة الشاعر الذي جرّد نفسه وزوجته وأطفاله من كُلِّ فضيلة ، وربما جاء ذلك بمثابة الإسقاطات التي تطفو على قصائده لتكون نوعاً من البوحِ

[47]() ديوانه : 78-81 .

والتنفيس عن معاناة عميقة الأثر في نفسية الشاعر .ومن حقِّ محلل الشعر الذي يروم الكشف عن الخصائص النفسية لمبدعه أن يعتمد بصورة أساسية على لغة الشعر ، انطلاقاً من حقيقة كون تلك اللغة الوعاء الذي يصب فيه الشاعر كُلَّ خلجات نفسه ، وتجليات مشاعره ، ومضمراته المستترة المكنونة في أعماق وجدانه[48] .ونلحظ في هذه القصيدة اعتماد الشاعر على نوع من الحوار الداخلي بينه وبين زوجته بوصفه وسيلة من وسائل إيصال الدلالة الشعرية التي أرادها الشاعر ، وهذا الأسلوب قديم في الشعر مذ كان الشعر ، إذ يجرد الشاعر فيه امرأة قد تكون زوجته وهي تحمل أفكاراً نقيضة لما يحمله هو ، تجادله وتلومه ، ولكن أبا دلامة سلك طريقاً يختلف عن الأسلوب القديم فاختار زوجته الواقعية التي جعلها مناط سخرياته ، وهي تلومُه وتمثل كذلك جزءاً من معاناته الاجتماعية بل ودافعاً من دوافع السخرية لديه .ولذلك وظَّف أكثر الألفاظ الدالة على القبح :

شوهاءُ مشنأةٌ في بطنها ثَجَلٌ وفي المفاصل من أوصالها فدَعُ

وهي ألفاظ يمكن أن نجعلها في غريب اللغة " مشنأة ، ثجلٌ ، فدعُ ، فاخرنطمت " وكأنّ الشاعر أراد من خلال ذلك إثبات قدراته في توظيف ما يريد من ألفاظ ، وبحسب المقامات والمناسبات ، وفضلاً عن ذلك فإنَّه أحسن في اختيار ألفاظٍ مناسبة تتلاءم مع مبلغ القبح الذي كان يراه في زوجته ، ولطالما فعل ذلك معها في أشعار أخرى ، منها قوله[49] :

ليس في بيتي لتمهيـ ـد فراشي من قَعيدهْ

غيْرُ عجفاءَ عجوزٍ ساقُها مِثلُ القَديدهْ

وجْهُها أقبَحُ من حُو تٍ طريٍّ في عَصيدهْ

ما حياةٌ مع أنثى مِثْلِ عِرْسي بِسَعيدهْ

إنّ الشاعر لم يترك لزوجته شيئاً من سمات الجمال لدى النساء ، بل أظهرها في أقبح ما تكون من هيأة حتى أخرجها من جنس النساء ليجعلها أقرب إلى كائنٍ مخيف ، مستعيناً بفن التشبيه ، والرسم بالكلمات ، ولعلَّ استعمال الأديب الفنان اللغة في رسم صوره أبلغ من ريشة الرسام الذي يحاول تجسيد تجربته ، وليس هذا بغريب ، إذ إنَّ البنية اللغوية الشعرية تختزن طاقات تعبيرية بوسع الأديب المُبدع أن يُفرغ فيها تجاربه ، وتكون حينئذٍ تجارب ولوحات فنية متجددة تبوح للمتأملين أنواعاً من الدلالات والصور[50] .وبعد هذا التطواف على نماذج من سخرياته بنفسِهِ وأفراد أُسرته نستطيعُ القول إنّ أبا دلامة بدا فيها غريب الأطوار ، إذ نصب نفسه وأُسرته غرضاً لأقسى أنواع السخرية ، ولا سيما أمَّهُ وزوجته ، ولا شك ان وراء ذلك خللاً في تكوين شاعرنا الاجتماعي والنفسي فالقارئ قد يلتمس للشاعر الساخر من الآخرين وجها من وجوه التعليل ، قد يكون كبراً في نفسه ، أو انتقاما من أفراد مجتمعه ، أما أن يختار من نفسه وأقرب الناسِ إليه موضوعاً للسخرية فهذا غريب حقا ويخفي من ورائه أسبابا ، وقد حاولنا بيان قسم منها.وفي مواطن أخرى وجدناه يسخر مما يملك من دابة ، وهي (بغلته) التي كان يضربُ بها المثل في كثرة العيوب[51] ، ولهذا فقد رسم لها صورة ساخرة جردها من أي صفة من صفات الأصالة ، منها قوله[52] :

أبْعدتِ من بغلةٍ مُواكِلَةٍ تَرمَحُني تارةً وتقْمصُ بِي

تكادُ عند المسير تَقطَعُني راكبُها راكبٌ على قَتَبِ

إنْ قُمتُ عند الإسراج أثْفِرُها تَطْرِفُ مِنِّي العينين بالذّنَبِ

---

[48] () ينظر : مقالات في الأسلوبية ، د. منذر عياشي : 57-58 .
[49] () ديوانه : 48 .
[50] () ينظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د. صلاح فضل : 297-299 .
[51] () ينظر : ديوانه : 93 .
[52] () المصدر نفسه : 33-34 .

وعند شدِّ الحزام تَنْهشُني ... مانِعَةٌ لِلّجامِ واللّبَبِ

ليسَ لها سِيرةٌ سوى الوَثبى ... كرقصِ زَنجٍ يَنْزونَ للطّرَبِ

وهي إذا ما علفتُها جَهَدتْ ... لا تأتلي في الجهادِ عن حَرَبِ

قد أكَلَتْ كُلَّ ما اشتريتُ لها ... من رِزْقِ شَعبانَ أمسِ في رَجَبِ

تمُرُّ فيما نَمى لِعِلْفتِها ... إنْ لم تُعلّلْ بالشّوك والقَصَبِ

إن أبا دلامة في هذه المقطوعة الساخرة استطاع أن يرسم لبغلتهِ أقبح ما تكون عليه البغال التي ذللها الله سبحانه للرَّكوب من خُلقِ ، من حيث حركاتها وشَراهتها في الأكل ، ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الوصف أظهر براعة الشاعر فيما يعرف بالرسم بالكلمات ، فقارئ هذه الأبيات تتجسد أمامه صورة البغلة في كل حالاتها وهي تحرك قوائمها ضاربة إياه أو مبعدة له وحركة ذنبها ، وهيأة سيرها ، وحال راكبها عليها وقد استعان الشاعر في ذلك كُلِّه بطاقة اللغة التصويرية بواسطة ألفاظها الموحية ، فضلاً عن التشبيه ، وهذا الأسلوب يمكن وضعه في قسم الهجاء الساخر ، المعتمد على سلب الفضائل عن طريق الإتيان بما يناقضها من حيث الدلالة ، ولعلّه أكثر أنواع الهجاء تأثيرا ، وأشدّه سخرية[53] .ويبدو أن هذه البغلة قد نالت من سهام هجائه الساخر حصة الأسد ، إذ وجدنا قصيدة أخرى في ديوانه طويلة بلغت تسعة وخمسين بيتاً ، ولعلّها أجمل قصائده الساخرة من حيث الأسلوب واللغة والمضمون ، وقد ضمّنها أبو دلامة ألفاظاً غريبة ، وانتهج الإطناب في ذكر الأوصاف التي رسم من خلالها صورة مضحكة مجردة من أية فضيلة ، واستعان في ذلك بأسلوب حواري قصصي مفترضا شخصية تتسم بالغباء وقلة الخبرة لتمثل المشتري الذي سيبتاع منه بغلته ، وهذا الأسلوب في نظم الشعر الساخر ورد كثيراً في شعر أبي دلامة ، ويمكن أن يكون جزءاً من ملامح تطور الشعر العربي في العصر العباسي ، وهي سمة تسجل له .

ونستطيع أن نقسم القصيدة على مشاهد جزئية عدة مثلت بمجموعها لوحة ساخرة متكاملة .

في المشهد الأول يعرض قسماً من عيوبها ليكون بمثابة التمهيد الذي يوضح سبب كرهه إياها وبيعها ، إذ قال[54] :

أبعْدَ الخيلِ أركبُها كِراماً ... وبعْدَ الغُرِّ من حُضْرِ البِغالِ

رُزُقتُ بُغيلةً فيها وِكَالٌ ... وخير خِصالِها فرْطُ الوِكالِ

رأيْتُ عيوبها كَثُرتْ وغالَتْ ... ولو أفنَيتُ مُجتهداً مقالي

ليُحصى مَنْطقي وكلامُ غيري ... عُشَيْر خِصالِها شرَّ الخِصالِ

فأهون عَيبِها أني إذا ما ... نَزَلتُ وقُلْتُ : أمشي لا تُبالي

تقومُ فما تريمُ إذا اسْتُحثّتْ ... وترمَحُني وتأخُذُ في قتالي

وإنّي إن ركِبْتُ أذَيْتُ نفسي ... بضرْبٍ باليمين وبالشَّمالِ

وبالرِّجلين أرْكِضُها جَميعاً ... فيا لك في الشَّقاءِ وفي الكَلالِ

رياضةُ جاهلٍ وعُليْج سوءٍ ... من الأكراد أحَبنَ ذي سُعالِ

شتيمِ الوجهِ هِلْباجٍ هِدانٍ ... نَعُوسٍ يَومَ حَلٍّ وارتِحالِ

---

[53] () ينظر : فن الهجاء : 179-180 .

[54] () ديوانه : 94-96 .

فأدّبَها بأخلاقٍ سِماجٍ جَزاهُ اللهُ شرّاً عن عِيالي

هذا الجزء من القصيدة يمثّل المشهد الأول ، وجعله الشاعر بمثابة تمهيد عبّر فيه عن معاناته مع مركوبه ، وقد كثرت عيوبها إلى درجة أن الشاعر لو أفنى عمره في تعدادها لما كفاه ، بل ان منطق غيره معه إذا اجتمع لما أحصيت عيوبها ، وقد أرجع تلك العيوب ساخراً إلى مروض تلك البغلة الذي سخر منه .ونلحظ ان الشاعر بدأ هذا الجزء بأسلوب الاستفهام الذي تضمّن معنى الاستغراب والدهشة والإنكار لما آل إليه حالهُ ، والقيمة التعبيرية لأسلوب الاستفهام في مطلع القصيدة تمثل وسيلة من وسائل لفت نظر المتلقي ، فضلاً عن كونه جذوة تختزن طاقة تعبيرية يبوح من خلالها الشاعر آلامه ، ويؤسس عليها ما يأتي من مضامين .ولذلك فقد انتقل إلى المشهد الثاني من مشاهد لوحته ، وهو مشهد مساومته مشترياً سفيها غِرّاً قليل الخبرة بالبغال وبالسوق ، وكأنَّ الشاعر من خلال هذا الجزء من قصيدته الذي استهلّه بأسلوب الاستفهام أراد أن يمهد للحدث الآتي ....إذ قال[55] :

فلمّا هدَّني ونفى رُقادِي وطالَ لذاك همّي واشتِغالي

أتيتُ بها الكُناسَةَ مُستَبيعاً أفكِّرُ دائباً كيف احتيالي

بِعُهدَةِ سِلعةٍ رُدّتْ قَديماً أطُمُّ بها على الدَّاء العُضالِ

فبيْنا فِكرَتي في السَّومِ تَسري إذا ما سِمْتُ أَرخِصُ أم أَغالي

أتاني خائبٌ حَمِقٌ شقيٌّ قديمٌ في الخسارة والضَّلالِ

وقال تبيعُها ؟ قُلْتُ : ارتبطها بكُمَك إنَّ بيعي غيرُ غالِ

فاقبلَ ضاحكاً نحوي سُروراً وقال أراكَ سَهلاً ذا جمالِ

وراوغني لِيَخلُوَ بي خِداعاً ولا يدري الشقِيُّ بِمَنْ يُخالي

فقُلتُ بأربعينَ ، فقال : أحْسِنْ إليَّ فإنَّ مِثلَكَ ذو سِجالِ

فأتركُ خمسةً منها لعلمي بما فيه يصيرُ من الخَبالِ

فلمّا ابتاعَها منِّي وبُتّتْ لهُ في البيعِ غيرِ المُستقالِ

أخذْتُ بثوبِهِ وبُرئتُ ممّا أعُدُّ عليهِ من شَنَعِ الخصالِ

هذا الحدث مثل مشهد المساومة والمبايعة ، وإن هذا الجزء من القصيدة قد بني على أسلوب الحوار لأنّه أراد أن يحكي مشهدا قصصياً بينهُ وبين المشتري ، وغلب عليه طابع اللغة السهلة الواضحة ، وهو أقرب إلى أسلوب النثر ولعلَّ السبب في تلك الصفة انه يحكي مشهداً حوارياً قصصياً ، وربما عمد الشاعر إلى افتراضِ شخصية أخرى ليعبر عن شخصيته هو ، فالمشتري في هذا المشهد مثل أبي دلامة نفسه ، إذ يلوم نفسهُ ويسخر منها ، ويصفها بالغباء والحمق لأنّه انخدع بثمن هذه البغلة الزهيد فاشتراها ، ومما يؤكد هذا التأويل مطلع قصيدته الذي استهل بالاستفهام .وينتقل إلى الجزء الثالث من القصيدة وهو أطول جزء ، إذ عدد عيوب تلك البغلة التي كانت شؤماً عليه ، فقال[56] :

برئتُ إليكَ من مشَشٍ قَديمٍ ومن جَرَذٍ وتخريقِ الجِلالِ

---

[55] () ديوانه : 96-98 .

[56] () ديوانه : 98-99 .

ومن فرطِ الحِرانِ ومن جِماحٍ ومن ضَعْف الأسافل والأعالي

ومن فَتْقٍ بها في البطنِ ضخْمٍ ومن عُقّالها ومِن انْفِتال

ومن غضِّ اللِّسانِ ومن خِراطٍ إذا ما همَّ صَحبُك بارتِحالِ

ومن عقد اللِّسان ومن بياضٍ بناظرها ومن حُلِّ الحِبالِ

وعُقّالٍ يُلازمُها شديدٍ ومن هَدمِ المعالفِ والرِّكالِ

ومن شَدِّ العِضاضِ ومن شبابٍ إذا ما هَمَّ صَحْبُكَ بالزِّيالِ

وهكذا يستمر في سرد عيوبها ساخراً ، فلم يترك لها صفة تستحسن كما في البغالِ الطبيعية ، وقد استقصى من عيوبها خِلقة وخُلقاً ، فبنيتها مشوهة في بطنها وأسافلها ، وهي حرون عنيفة مع ثقل حركتها ، ثم يستمر في تعداد عيوبها فهي[57] :

تقطّع جِلدُها جَرَباً وحكاّ إذا هُزِلَتْ وفي غيرِ الهُزالِ

وألطفُ من دَبيبِ الذّرِّ مَشياً وتنْحِطُ من مُتابعةِ السُّعالِ

وتُلقي سَرْجَها أبداً شِماساً وتسقطُ في الوُحُولِ وفي الرِّمالِ

ويُهزلُها الجَمَامُ إذا خَصِبنا ويُدبرُ ظهرها مَسُّ الجِلالِ

تظلُّ لِرَكْبةٍ منها وقَيْذاً يُخافُ عليكَ منْ ورمِ الطِّحالِ

وتضرطُ أربعين إذا وقفنا على أهل المجالسِ للسُّؤالِ

فتخرِسُ مَنطقي وتحولُ بَيْني وبيْنَ كلامِهِمْ ممّا تُوالي

إنَّ القارئ يلمح دعابة أبي دلامة في أوصافه لهذه البغلة ، فهو قد مزج بين السخرية والفكاهة ولا سيما في وصفه مشيتها ، وتصويتها عندما يتوقف أمام المجالس سائلاً ، ولعلَّ هذا تجسيد لبواعث السخرية لديه ورسالتها التي من اجلها سلك أبو دلامة هذا الاتجاه في نظمِهِ ذلكم هو الفكاهة والإضحاك ، وإن كنا لا ننفي البواعث الأخرى التي ذكرناها سابقاً .ولذلك وجدناه ينحو منحى الفكاهة في أوصافها الأخرى ، وهي[58] :

حَرُونٌ حِينَ تركبُها لحُضرٍ جَمُوحٌ حين تُعْزمُ للنِّزالِ

وذئبٌ حينْ تُدنيها لِسَرْجٍ وليثٌ عند خشْخَشة المخالي

وفَسْلٌ إن أردْتَ بها بُكُوراً خَذولٌ عند حاجات الرِّحالِ

وألفُ عصاً وسوطٍ أصْبحيٍّ ألذّ لها من الشَّرب الزُّلالِ

وتصْعقُ من صُقاعِ الدِّيكِ شَهْراً وتُذْعَرُ للصَّفيرِ ولِلْخَيالِ

---

[57] () ديوانه : 100-101 .

[58] () المصدر نفسه : 102-103 .

إذا اسْتَعْجَلتها عَثَرتْ وبالتْ وقامتْ ساعةً عند المبالِ

وهو في كُلِّ أوصافه وظّف لغةً سهلة مباشرة ذات طابع نثري ، وقد يضمنها أحيانا ألفاظاً غريبة .وترتقي السخرية من هذه البغلة لتصبح عنده نوعاً من الطُرفة التي تهدف إلى إضحاك الآخرين ، كما في وصفه عمرها ، فهي[59] :

وكانتْ قارحاً أيّامَ كِسْرى وتَذكرُ تُبّعاً عِندَ الفِصالِ

وقد قَرحتْ ولقمانٌ فَطِيمُ وذو الأكتافِ في الحِجَج الخوالي

وقدْ دَبرتْ ونُعمانٌ صبيٌّ وقبل فِصالِهِ تِلكَ اللّيالي

وتَذكُرُ إذ نشا بَهرامُ جُورٍ وعامِلُهُ على خرْج الجَوَالي

وقدْ أبلى بها قرنٌ وقرْنٌ وأخِّرَ يومُها لهِلاكِ مالي

وقد ضمّن أبياته تلك الشخصيات التاريخية التي كان بينه وبينهم أمدٌ بعيد على سبيل المبالغة في وصف هرمها ، وهذا الأسلوب سلكه في أشعار أخر ، ويمثل سمة من سمات أسلوبه الشعري .ولعلنا بعد تلك الإطلالة على هذه القصيدة الساخرة نستطيع أن نتبين خصيصة من خصائص شعره وطالما أشرنا إليها في مواضع أخرى ، تلكم السمة تتمثل بالسهولة والوضوح في شعره من حيث اللغة ، والطابع الأقرب إلى روح النثر ، وفضلاً عن ذلك ، فإن الهدف من السخرية هو الفكاهة والترويح ، وليس التهوين من شأن غيره ، ولذلك فقد أطال السخرية من البغلة ، وأمعن في تجريدها من الصفات الأصيلة. ولعل وراء ذلك وظيفة دلالية لها علاقة بأسلوب الأطناب, وسلوك السرد في ذكر مايروم الشاعر ذكره, إذ إنَّ هذه السمة توفر له مجالاً يسمح له بذكر أكبر عدد من العيوب التي يمكن أن تكون موضوعاً للسخرية.

ومما يجسد الطابع الفكاهي قوله في المهدي وعلى بن سليمان وقد خرجا في رحلة صيد[60]:

قد رمى المهديُّ ظبياً شَكّ بالسّهمِ فؤادَهُ

وعليُّ بن سُليما نَ رمى كلباً فصادهْ

فهنيئاً لهما كُلُّ امرئٍ يأكلُ زادَهُ

ولم يكتف أبو دلامة بسخرياته الاجتماعية, بل له أشعارٌ كثيرة تضمنت سخرياته الدينية فإن الناظر في الكتب التي ترجمت له يجد أنها وصفته بتضييع فرائض الدين وارتكاب المحارم ، وسلوك المجون في حياته[61] ، والقارئ لشعره يجد أثراً من هذهِ الرِّقة والتخفف في الدين ، إذ جعلَ قسماً من فرائض الإسلام موضوعا لسخرياته ، من ذلك قوله في صلاة الجماعة بعد أنْ أمره المنصور بملازمة مسجده في صلاة الظهر والعصر[62] :

ألم تريا أنَّ الخليفة لزني بمسجده والقصرِ مالي وللقَصرِ

فقد صدّني من مسجدٍ استلذّه أعَلِلُ فيه بالسماع وبالخمرِ

وكلّفني الأولى جميعاً وعصرها فويلي من الأولى وعولي من العَصر

---

[59] () ديوانه : 105 .
[60] () المصدر نفسه : 51 .
[61] () ينظر : الأغاني : 10/281 ، وتاريخ الإسلام ، الذهبي : 416 ، والعصر العباسي الأول : 296 .
[62] () ديوانه : 64-66 .

أصليهما بالكُره في غيْر مسجدي فما لي من الأولى ولا العصر من أجرِ

يكلفني من بعدما شبتُ توبة يحطّ بها عنّي المثاقيل من وزري

لقد كان في قومي مساجدُ جمّةٌ ولم ينشرح يوماً لغشيانها صدري

و والله مالي نيةٌ في صلاتهِ ولا البر والإحسانُ والخيرُ من أمري

وما ضرّهُ والله يغفر ذنبه لو انَّ ذنوبَ العالمين على ظهري

إنّ الأبيات عبّرت عن معنى السخرية من الصلاة وملازمة المسجد ، بل إنّه جعل مجالس الخمور والفجور مسجده ، وهنا تكمن دلالة السخرية ، ويستكملها في البيت الأخير الذي يوحي بمدى استخفافه بالدين الإسلامي وشعائره .وإذا تلمسنا تأويلات تسوغ سلوك أبي دلامة في أنواع السخرية الأخرى ، فإنّ أمر السخرية من شعائر الإسلام من الصعوبة إيجاد مسوغ له ، إلاّ إذا اتصف صاحبها بالتهتك والمجون ..... ولذا فإنه في موضع آخر سخر من شهر الصوم وشعائره ، إذ قال[63] :

هلْ في البلاد لرزقِ الله مفترشٌ أم لا ففي جِلْده من خشنةٍ برشُ

أضحى الصيامُ منيخاً وسط عرصَتنا ليتَ الصيامَ بأرضٍ دونها حَرشُ

إنْ صمْتُ أوجعني بطني وأقلقني بين الجوانحِ مسُّ الجوع والعطشُ

وإن خرجتُ بليلٍ نحو مسجدهم أضرني بَصرٌ قَدْ خانَهُ العمَشُ

مضمون هذه السخرية يقوم على الشكوى من مشقة الصوم ، وأثره في جسد الإنسان ، إلا أن ما يلفت نظر القارئ في هذه الأبيات إضافة " مسجد " إلى ضمير الغائبين ، فقال : " مسجدهم " والضمير عائد إلى أصحاب المسجد وهم المسلمون أو المؤمنون ، وهذا التركيب يوحي بدلالة كون أبي دلامة ليس منهم ، وأن المسجد ليس مسجده ، ولا هو من أهله ، ولعلَّ ذلك يمثل نوعاً من الإسقاط الدلالي الذي كان يضمره أبو دلامة ، ولذلك فقد تجرأ أشدَّ الجرأة عندما سخر من ليلة القدر ، إذ قال[64] :

يا ليلة القدر قدْ كسرتِ أرجُلنا يا ليلة القدر حقاً ما تمنينا

لا بارك الله في خيرٍ أومّلهُ في ليلةٍ بعدما قمنا ثلاثينا

إنّه بدا مشككا في وعد الله لمن قام ليلة القدر " حقا ما تمنينا " وهو استفهام محذوف الأداة ، ويمكن حمله على خارج الى الانكار ، وهذا يدلُّ أبلغ الدلالة على تهتكه ومجونه ، بل وسوء مذهبه في الاعتقاد ، ويبدو أنها كانت السبب في وصفه بالبعد عن الدين وسوء الاعتقاد.وهكذا بدا أبو دلامة وبدت أشعاره الساخرة ، إذ سخر من كُلِّ شيء حوله ، من نفسِهِ وأمِّه وزوجهِ ، وبنيه ، ومن دابته ، ومن بعض شعائر الإسلام وأركانه ، وعدد من أفراد عصره .وليس هو أول من سخر من أسرته ، فقد سبقه في ذلك بعض الشعراء ، ولا سيما الحطيئة[65] ، ولعلَّ المعاناة التي قاساها شاعرنا تقترب إلى حد بعيد من معاناة ذلك الشاعر (الحطيئة) ، وأخص هنا نسبه ووضعه الاجتماعي ، إلاّ أنّ أبا دلامة اختلف عنه من حيث نوع السخرية التي امتزجت عنده بالفكاهة والدعابة, فأضحك الناس بقدر ما أغاظهم الحطيئة.

الخاتمة والنتائج :

---

[63]() المصدر نفسه : 76 .

[64]() ديوانه : 117 .

[65]() ينظر : فن الهجاء : 121-123 .

يمكننا بعد النظر في شعر ابي دلامة الساخر , أن نسجل ابرز النتائج التي توصل إليها البحث ، ويمكن إيجازها بما يأتي :

- إنَّ نسبة شعره الساخر في ديوانه كانت غالبة ، إذ إنَّ جُلَّ شعره المجموع جاء في موضوع السخرية ، وقد سخر من كلِّ شيءٍ حوله ، من نفسه وأسرته وما يملك ومن يصاحب ، ولذلك فإنه يعد بحق شاعر السخرية الأبرز في العصر العباسي ، بل في الأدب العربي , لما تتصف به شخصيته من دعابة وفكاهة وبديهة حاضرة .
- اتخذ الشاعر هذا النوع من الشعر لأغراض عِدة ، منها : " التنفيس عن الألم الذي كان يكبتهُ بين جنبات قلبه جراء وضعه الاجتماعي ، إذ كان ينتسب إلى أبيه الذي كان عبداً ومنقطع النسب ، فضلاً عن دمامة منظره ، وقبح مطلعه ، ولذلك استعان بموهبته الشعرية ليجعل من نفسه ذا أهمية ، وللتقرب إلى الخلفاء وعِلية القوم من الوزراء والأمراء .
- نتيجة للوظيفة التكسبية لسخرياته , وجدناه يفتتح بها عدداً من مدحياته , شكلت سمة اسلوبية في اشعاره .
- لم تكن سخرياته تنبئ عن حقد دفين على المجتمع وأفراده ، ولهذا لم يسئ إلى أحد في قصائده ، بقدر ما كان يهدف إلى الفكاهة والظرف .
- اتسمت لغة قصائده بالسهولة والوضوح حيناً وباستعمال الغريب من اللغة حيناً آخر مراعاة لمقام من يخاطبهم .
- ومما له صلة بما سبق , توظيفه فنون البيان ، وقد برع في ذلك ، حتى إن القارئ لترتسم أمامه صور المسخور منه مجسدة خير تجسيد ، في سكناتها وحركاتها .
- ومما لمسه البحث ابتعاد اشعاره الساخرة عن الاسفاف في القول , بل نستطيع ان نعدها في اشعار الفكاهة الملتزمة الهادفة , وقد ترتقي احياناً لتصبح عنده نوعاً من الطرفة والدعابة التي تهدف الى اضحاك الاخرين وبث البهجة والسعادة في نفوس المتلقين .
- لجأ الى تضمين ابياته الشعرية , الشخصيات التاريخية التي كان بينه وبينهم امد بعيد على سبيل المبالغة - في وصف هرم بغلته - وهذا الاسلوب سلكه في اشعار اخرى ويمثل سمة من سمات اسلوبه الشعري .
- ومن السمات الفنية الاخرى التي رصدها البحث , استعماله اسلوب الاستفهام الذي تضمن معنى الاستغراب والدهشة والانكار – لما ال اليه حاله – والقيمة التعبيرية لاسلوب الاستفهام في مطلع القصيدة , يمثل وسيلة من وسائل لفت نظر المتلقي, فضلاً عن كونه جذوة تختزن طاقة تعبيرية يبوح من خلالها الشاعر عن الامه , ويؤسس عليها مايأتي من مضامين .
- ومما لمسه البحث أيضا اعتماده اسلوب التكرار , سواء في الالفاظ أو في أوزان صرفية وان كثرة ورود هذا النوع من التكرار له وظيفتان , الاولى دلالية والثانية ايقاعية .
- ومن السمات التي توصل اليها البحث , استعماله الطابع القصصي الحواري , ولا سيما في بعض قصائده الطويلة , اذ كان الشاعر يفترض شخصية يحاورها باستخدام فعل القول (قلت , قال) ولعل وراء تلك السمة علة وظيفية دلالية , لها علاقة باسلوب الاطناب واسلوب السرد في ذكر ما يروم الشاعر تعداده , وهذا الاسلوب في نظم الشعر قد تردد في شعره الساخر , ويمكن ان يكون جزءاً من اسهامه في تطوير الشعر العربي في العصر العباسي , وهي سمة تسجل له .
- ويمكن أن يقال إنّ أبا دلامة أحسن في كل ما يقول من شعر ساخر ، وأثبت مقدرته إن كان في اللغة السهلة الواضحة ، أم في توظيفه الغريب منها ، أم في التصوير البياني عن طريق التشبيه وفنون المجاز .

ثبت بأشعار السخرية في الديوان

ضرب (نهاية الشطر الأول)	القافية (نهاية الشطر الثاني)	عدد الأبيات	الوزن	الصفحة
عقدنا	اللواء	2	الوافر	29
الوغى	ضِرابِ	3	الكامل	31
هِمّةٌ	المشجب	8	الكامل	35-36
لنعتي	النَّصاح	7	الخفيف	42-43
عليِّ	بسماح	4	الحفيف	44-45
بالـ	أم عبيدهْ	3	مجزوء الرّمل	48-49
ظبيا	فؤادهْ	3	مجزوء الرمل	51
لزّني	وللقصر	8	الطويل	64-66

زيادةً	القلانس	2	الطويل	75
مفترشُ	برشُ	4	البسيط	76
فانتجعوا	رتعوا	13	البسيط	78-80
كِراما	البغالِ	59	الوافر	94-106
بعدكُمُ	الفِيلِ	2	البسيط	108
دلامةُ	كرامهْ	4	الوافر	109-110
فإنّني	تُحطّما	4	الطويل	111
ثُوبي	رجيمُ	3	الوافر	112
احتُضرتْ	المصلينا	4	البسيط	117
يقدمني	أسد	5	البسيط	54-56
لتمهيد	قعيده	4	مجزوء الرمل	48
مواكلة	بي	8	المنسرح	33-34

ثبت المصادر والمراجع :

- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي ، ط1 ، د.ت ، دار المسيرة – بيروت ، ساعدت جامعة بغداد على نشره .
- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، د. عبد القادر فيدوح ، ط1 ، 1992 ، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق .
- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ، شرحه وكتب هوامشه : عبد علي مهنا وسمير جابر ، ط2 ، 1992م ، دار الكتب العلمية – بيروت .
- الايضاح في علوم البلاغة , القزويني , جلال الدين محمد بن عبد الرحمن , تحقيق لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الازهر مط المحمدية , مصر ,د . ت , واعيد طبعه بالاوفسيت مكتبة المثنى , بغداد .
- البداية والنهاية , ابن كثير (اسماعيل بن عمر) تحقيق احمد ابو ملحم وغيره , ط3 ,1987 , دار الكتب العلمية , بيروت .
- البلاغة العربية – قراءة أخرى ، د. محمد عبد المطلب ، د. ط ، 1997م ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان .
- بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري ، ط1 ، 1986م ، دار توبقال للنشر – الدار البيضاء – المغرب .
- تاريخ الإسلام ، محمد بن احمد الذهبي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ، ط ، د.ت ، دار سويدان – بيروت .
- تاريخ بغداد , الخطيب البغدادي , احمد بن علي , د.ت , د. ط , دار الكتاب العربي , بيروت .
- تحرير التحبير في صياغة الشعر والنثر وإعجاز القرآن ، أبو الإصبع المصري ، تحقيق د. حنفي محمد شريف ، ط1 ، 1383هـ ، القاهرة .
- جوهر الكنز , تلخيص كنز البراعة في ادوات ذوي اليراعة , ابن الاثير الحلبي , نجم الدين احمد بن اسماعيل , تحقيق د. محمد زغلول سلام , د. ط , منشأة المعارف المصرية , د.ت .
- دلائل الإعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ط2 ، 1407هـ-1987م ، مكتبة سعد الدين – دمشق .
- ديوان أبي دلامة ، شرح وتحقيق : د. إميل بديع يعقوب ، ط1 ، 1426هـ 2005م ، دار الجيل للنشر والتوزيع – بيروت .
- السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د. نعمان محمد أمين طه ، ط1 ، 1978م ، دار التوفيقية للطباعة – القاهرة .
- سير اعلام النبلاء , الذهبي , محمد بن احمد , تحقيق علي ابو زيد , ط9 , 1993 .
- الشعر والشعراء , ابن قتيبة , عبد الله بن مسلم , تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ط3, 1977 .
- العصر العباسي الأول ، د. شوقي ضيف ، ط14 ، د.ت ، دار المعارف – مصر .
- الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري ، نسخة مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، ط5 ، 1983 ، دار الأفاق الجديدة – بيروت .
- الفكاهة عند العرب ، أنيس فريحة ، ط1 ، 1962م ، مكتبة رأس بيروت – بيروت .
- الفكاهة في مصر ، د. شوقي ضيف ، د، ط ، 1958م ، كتاب الهلال – مصر .
- فنُّ الهجاء وتطوره عند العرب ، إيليا حاوي ، د.ط ، د.ت ، دار الثقافة – بيروت .
- لسان العرب ، ابن منظور ,اعتنى بتصحيحها:أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي ط3,د.ت,داراحياء التراث العربي-بيروت.
- لسانيات النص – مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي ، ط1 ، 1989م ، المركز الثقافي العربي .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق : د. أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، ط2 ، 1983م ، منشورات دار الرافعي – الرياض .
- المخصص , ابن سيدة , ابو الحسن علي ابن اسماعيل , تحقيق لجنة احياء التراث العربي , د , ط , دار الافاق الجديدة , بيروت , د , ت .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ؛ د. احمد مطلوب ، ط1 ، 1407 هـ 1987م ، مطبعة المجتمع العلمي العراقي – بغداد .
- معجم المصطلحات في اللغة والأدب,مجدي وهبة و كامل المهندس,ط2, 1984م,بيروت.
- مفتاح العلوم , ابو يعقوب , يوسف بن ابي بكر بن محمد بن علي , ط1 , مطبعة دار الرسالة بغداد , 1982 .
- مقالات في الأسلوبية ، د. منذر العياشي ، ط1 ، 1990 ، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق .
- مقاييس اللغة ، أبو الحسين احمد بن فارس ، اعتنى به ، د. محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان ، ط1 ، 1422هـ -2001م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- نظرية الأدب ، أوستن وارين ورينيه ويلك ، ترجمة محيي الدين صبحي ، ط1 1392هـ1972م ، مطبعة خالد الطريشي .
- نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د. صلاح فضل ، ط3 ، 1405هـ-1985م ، دار الآفاق الحديثة – بيروت .
- النفس – انفعالاتها وأمراضها وعلاجها ، د. علي كمال ، ط4 ، 1983م ، الدار العربية – بغداد .